مجلة أبعاد/ مختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 – المجلد 07/ العدد 1 – 30 جوان 2020
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

جمالية الرّمز في الشّعر الجزائريّ الحديث
دراسة بلاغيّة لمقتطفات شعريّة عند مفدي زكريا

The aesthetic of the symbol in modern Algerian poetry
a rhetorical study on Mofdi Zakaria's poetry extracts

مويسي مخطار* [1]
mokhtar.mouissi@univ-sba.dz
[1] جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس – الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2020/03/05 | تاريخ القبول: 2020/04/15 | تاريخ النشر: 2020/06/30

الملخص:

سياق حديثنا هنا عن الرّمزية وجماليتها في الشّعر الجزائريّ الحديث، هذا الرّمز الّذي يقوم أساسا على مبدأ اكتشاف نوع من التّشابه الجوهري المكنون بين شيئين اكتشافا ذاتيا، مبتكرا والجمع بين الحسيّ والمعنويّ بصورة ساحرة وموحية ومؤديّة للمعنى تأدية ممتازة، حيث يُعمق المعنى ويعطيه بعداً فنّياً وجماليّا تستحسنه النفس الإنسانية و يدفعها للتفكير والتوقف بل والوقوف. هذا ما وجد في الشّعر العربي الحديث عموماً والجزائريّ بشكل خاص.

وتأسيساً على ما سبق، تهدف فكرة هذه المداخلة الموسومة بـ " جمالية الرّمز في الشّعر الجزائريّ الحديث – دراسة بلاغيّة لمقتطفات شعريّة عند مفدي زكريا – " إلى إلقاء الضّوء على البعد الجماليّ والفنّي للرمز في الشّعر الجزائريّ ـ و لدى مفدي زكريا خصوصاً، و كانت نتائج البحث كلها إجابة على مجموعة من الإشكالات لعل أهمها: ما الرّمز لغةً واصطلاحاً؟ وأين تكمن جماليته ؟ و كيف وظف الشّاعر مفدي زكريا الرّمز و أنواعه في قصائده ؟ و كذا ما الأثر الجماليّ لرّمز الموظف في المقتطفات المختارة في نفسية القارئ ؟

الكلمات المفتاحية: الرّمز؛ الجماليّة؛ الشّعر؛ الجزائريّ؛ مفدي زكريا.

Abstract:

The context of our conversation here is about symbolism and its aesthetics in modern Algerian poetry. This symbol, which is mainly based on the principle of discovering a kind of

* المؤلف المرسل:

essential similarity between two things, is a self-discovery, innovative, and the combination of sensual and moral in a charming, suggestive and leading to the meaning of an excellent performance, where it deepens the meaning and gives it an artistic and aesthetic dimension. The human psyche drives it to think, stop and even stand up. This is what was found in modern Arab poetry in general and Algerian in particular.

Based on the foregoing, the idea of this intervention marked with "Aestheticism of the symbol in modern Algerian poetry - a rhetorical study of poetry extracts at the heart of Zakaria" - sheds light on the aesthetic and artistic dimension of the symbol in Algerian poetry, and with the chief of Zakaria in particular, and to answer what I thought that I present a set of problems, perhaps the most important of them: What is the symbol language and terminology? And where does his beauty lie? How did the poet Moufdi Zakaria employ the types in his poems? Also, what is the aesthetic effect of the employee symbol in the selected quotes on the reader's psychology?

Keywords: symbol ; aesthetic ; poetry ; Algerian ; Moufdi Zakaria.

مقدّمة:

تتميّزُ اللّغة العربيّة بتنوّعِ الأساليب البلاغيّة التي تساهمُ في تطوّر مبنى الكلمات ومعناها، ورصد الجمال في التراكيب المُستخدَمة في تحرير النّصوص النثريّة ونظم القصائد الشّعريّة، هذه الأخيرة الّتي يطلق الشّاعر فيها عنانه لخياله وإبداعه مترجما بذلك تجربة حسيّة فريدة، ومستعينا بأدوات البيان كلّها ليرسم جمالية من شأنها خطف نفسية القارئ وسرق تلك الآه العميقة منه ليعيش بعدها في عالم مليء بالجمال.

والشّعر يختلف عن النثر في كونه يحتضن صور الجمال أكثر، فهو في تعبيره عن المعنى أشد حساسية و تأثيرا، ولأنّ الصّورة الرّمزية جزء لا يتجزأ منه فهو يشكل دفعة انفعاليّة رهيبة لتجربة حسّية مشحونة بالعواطف و التّداخل. وشحنات إيحائية تثير نفس القارئ وتدعوه للتأمل. والمتتبع لمسار الشّعر الجزائريّ يجده قد عَمَد على الرّمز في كثير من مواضعه، فراح الشّعراء الجزائريّون يعبرون عن الإنسانية والحب و الكره والدّين والتّاريخ بالرّمز، هذا الّذي وجدوا فيه مطيّتهم الّتي احتوت أبعادهم الفكرية والخيالية، ومن بين عظماء الشّعر الجزائريّ الحديث شاعر الثورة الجزائريّة: مفدي

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

زكريا، الّذي أتحفنا بمطالع شعرية فاخرة وزاخرة، كان للرّمز فيها نصيب موفور، وبالتّالي جاءت هذه الدّراسة لتنير بعض الجوانب الرّمزية في شعره.

1. الرّمز بين المفهوم والأنواع والجماليّة:

مفهوم الرّمز:

لغة: الرّمز: رمز، يرمز، ورمزا،: وفي القرآن الكريم في قصة زكريا عليه السلام « قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ"[1]

جاء في لسان العرب أنّ " الرّمز تصويت خفي باللسان كالهمس، والرّمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرّمز كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين" [2]، وجاء في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة أنّ الرّمز " وسيط تجريدي للإشارة إلى عالم الأشياء " [3]

كما جاء في المعجم الأدبي أنّ الرّمز « كل إشارة أو علامة محسوسة تذكر بشيء غير حاضر من ذلك العلم رمز الوطن، الكلب رمز الوفاء، الحمامة البيضاء رمز للمسيحية، الأرز رمز لبنان " [4] و أمّا مقابله في اللّغة الأجنبيّة هو le symbole

أمّا اصطلاحا: تعّددت تعريفات الرّمز واختلفت حسب الباحثين، وإن كانت كلها تصب في معنى واحد، فالرّمز كما جاء في معجم المصطلحات الأدبية هو «شيء يعتبر ممثلا لشيء آخر، وبعبارة أكثر تخصيصا، فإن الرّمز كلمة أو عبارة أو تعبير آخر يمتلك مركبا من المعاني المترابطة، وبهذا المعنى ينظر إلى الرّمز باعتباره يمتلك قيما تختلف عن قيم أي شيء يرمز إليه كائن ما كان، وبذلك يكون العَلَم وهو قطعة من القماش يرمز إلى الأمة، والصليب يرمز إلى المسيحية، والصليب المحقون يرمز إلى النازية... كما استخدم الكثير من الشّعراء الوردة البيضاء رمز للصبا والجمال، واستخدم أليوت الرجال الجوف رمزا للتّهور " [5] كما اعتبر بعض علماء النّفس أن وظيفة الرّمز هي إيصال بعض المفاهيم

[1] سورة آل عمران، الآية 41 .
[2] ابن منظور، لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، لبنان، ص .222-223
[3] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص .102-101 .
[4] جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العالم للملايين، بيروت، ط2، 1973، ص .183
[5] ابراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، 1986، ص 17 .

إلى الوجدان بأسلوب خاص لاستحالة إيصالها بالأسلوب المباشر المألوف، أما يونغ فقد خالف هذه النظرية وأنكر أن يكون تمويها للفكرة واعتبره الوسيلة الوحيدة المتيّسرة للإنسان في التعبير عن واقع انفعالي شديد التعقيد "[1]

أمّا أدبيّا فالرّمز الإشارة بكلمة تدلّ على محسوس أو غير محسوس، إلى معنى غير محّدد بدقة، ومختلف حسب خيال الأديب، وقد يتفاوت القراء في فهمه وإدراك مداه بمقدار ثقافتهم ورهافة حسّهم، فيتبّين بعضهم جانبا منه، وآخرون جانبا ثانيا، أو قد يبرز للعيان خاصة المثقفين فنيّا بيسر من ذلك:أنّ الشاعر يرمز إلى الموت بتساقطت أوراق الشجر في الخريف، ويرمز إلى الإحساس بالقلق والكآبة بقطرات المطر المتساقطة على زجاج نافذته في رتابة مضنية "[2]

كل التّعاريف السالفة الذكر تتّفق في أنّ الرّمز الّذي يقوم أساسا على مبدإ اكتشاف نوع من التّشابه الجوهري المكنون بين شيئين اكتشافا ذاتيا، مبتكرا والجمع بين الحسيّ والمعنويّ بصورة ساحرة وموحية ومؤديّة للمعنى تأدية ممتازة، حيث يُعمق المعنى ويعطيه بعداً فنّياً وجماليّا تستحسنه النفس الإنسانية و يدفعها للتفكير والتوقف.

أنواع الرّمز وجماليّته:

الرّمز الديني: والمقصود به تلك الرّموز المستقاة من الكتب السماوية (القرآن، الإنجيل، التوراة...)، حيث وجد الشّعراء من هذه الديانات مجالا ثقافيا يستلهمون منها رموزهم الفنية، فاعتبروا التراث الديني مصدرا مقنعا وكاملا لأخذ رموزهم. فتوجه الشاعر وديانته تدخل في لا وعيه ليضمّها في كتاباته «فعندما تكون الثقافة جزءا من الذات، تنبع منها وتتصل بوجدان الشاعر، فتنصهر فيه لتغدو انفعالا في قلب التجربة، وتدفع بالشّعر إلى أقصى الحداثة دون الوقوع في التيه " [3]

فالدين ينعكس إذا على عمل الأديب فهو يعبّر عن هذا الكيان عن طريق اللغة، فهذه اللغة الدينية تختلف عن غيرها من اللغات العادية، فهي تصوّر الحياة تصورا رمزيا أكثر مما تعبّر عنها بالطريقة المباشرة. فالكثير من الحقائق يجدها الإنسان في

[1] جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص .123-124.
[2] المرجع نفسه ص 124 .
[3] ابراهيم الرماني، الغموض في الشّعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية،1991، ص12

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

النصوص الدينية أو يقوم بذكر حادثة وقعت وذكرت في الكتب السماوية كقصة أهل الكهف وليلة الإسراء والمعراج التي ذكرتا في القرآن الكريم، ويعطي لها أبعادا ليسقطها على الواقع المعاش.

الرّمز الأسطوري: يعّد الرّمز الأسطوري من أكثر الرّموز استعمالا في الأدب عامة، فهو يحيل إلى عّدة دلالات، يقتبسها الشاعر من أكثر حضارة واحدة، فبعضها من الحضارة اليونانية والأخرى من الحضارة البابلية، وغيرهما من الحضارات القديمة .فالأسطورة هي كل ما ليس واقعي ولا يصّدقه العقل البشري، إلا أنّ الناس يقبلونه ويلتفون حوله، وبما أنّ، ها منفتحة على عالم الخيال الواسع منحت الأدب إمكانيات ليس لها حدود للإبداع، فهي «منجز روحي إنساني، تمكنت الإنسانية عم طريقه من خلق عقول شاعرية خيالية وموهوبة، سليمة، لم يفسدها تيار الفحص العلمي والمنطقي ولا العقلية التحليلية "[1]

وتوظيف الرّمز الأسطوري غرضه تحريك الخيال وتحفيز الشعور، فاستغل الشّعراء طاقاتهم في التعبير، فنظموا قصائد عن طريقها، وأفادت بذلك التجربة الشّعرية بالجودة بالجهد وكثافة الإيحاء ويكون التعبير بعيدا عن السطحية وعن اللغة المباشرة، فهذا يتطلب من القارئ لمعرفة وكشف معاني القصيدة، يعتبر النقاد أنّ العلاقة بين الشّعر والأسطورة علاقة وطيدة وذلك لما فيها من خصائص مشتركة كالغموض والسحرية وغيرهما، كما أنّ الأسطورة يمكن لكل شاعر أن يعبّر عنها في شعره بطريقته الخاصة لبعث فيه روحا جديدة تواني واقعه وتجربته ومجتمعه الذي يكتب له، فاستخدام الشاعر لنفس الأسطورة يمكن أن تكون لها عّدة دلالات مختلفة عن بعضها البعض.

الرّمز التاريخي: إنّ النّصوص الشّعرية الخالدة هي تلك النصوص الغنية بالاستعارات والرّموز الدالة والمفتوحة على كل القراءات إضافة إلى احتوائها على شيء من التاريخ والتراث التي تبعث فيه روحا جديدة حسب المعطى المعاش فـ «الأحداث التّاريخية والشّخصيات ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها جانب دلالتها والشمولية الباقية، والقابلة للتجدد -على امتداد التاريخ- في صيغ وأشكال

[1] يحيى السيخ صالح، شعر الثورة عن مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دت، ص .6.

أخرى"[1] وهذا عن طريق استدعاء هذه الشخصيات و الأحداث ليستعين بها الشاعر في كتاباته فبمجرد ذكر تلك الشخصية أو الحدث يتبادر مباشرة إلى ذهن المتلقي المغزى المراد التوصل إليه بدون لف ودوران، لكن بشرط أن يكون القارئ ملمًا بهذه الأحداث وأن يكون على دراية بها وواعيا بالمغزى الذي تحمله.

2. الرّمز في الشّعر العربي الحديث:

لم يعرف الشّعر العربي القديم الرّمزية بمفهومها الفلسفي الذي ذاع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وإنما هي رمزية المجاز بألوانه البيانية المعروفة كالتشبيه والاستعارة يمسها الغموض إلا قليلا، وفي مواطن محدودة.

أما الشّعر العربي الحديث فقد عرف هذه الرّمزية، بتأسيسه على " انجازات الشّعر الغربي يقوم الرّمز الحديث وإن كان لم يكن مذهبا على شكل مالارميه وألن يو. ويقوم الرّمز الحديث على نظرية التراسل، فلسفة الحلم وشمولية الرؤية، الجمالية الذاتية الامتداد الخيال الزمني الذي يبلغ العصر الأسطوري. وينطوي على معرفة عميقة وحساسية في قاع بنية مبتكرة، تكتسب شعريتها أو شرعيتها في تجاوز النموذج المألوف وتخطي الزائف" [2]

إنّ الشّعر الجزائريّ الحديث عايش حركة انتعاش مع بداية القرن العشرين في جو سيّاسي جديد، جعل الشّعراء يُسخِّرون أقلامهم لخدمة القضية الجزائريّة، رافعين لواء الإصلاح والجهاد، مدركين بذلك وقع الكلمة القوي على النّفوس، ومُستَندين على التّصوير الفنيّ باستخدام شتى أنواع البيان والرّمز، ومن بينهم: صالح باوية، محمد العيد آل خليفة، عبد السلام حبيب، مفدي زكرياء... و آخرون. و نروم في هذه الورقة البحثيّة أن نلقي الضوء على شاعر من أعلام الثّورة الجزائريّة، سخر قلمه خادماً للقضيّة الجزائريّة، فكان حبره مدويّا تماماً كما دوّت بنادق المجاهدين في أعلى جبال الأوراس ليلة الفاتح من نوفمبر.

[1] علي عشتري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشّعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص120 .
[2] فتوح أحمد، الرّمز والرّمز ية في الشّعر العرب المعاصر، دار المعارف، مصر، 1977، ص 143 .

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

3. مفدي زكرياء، شاعر الرّمز والبلاغة:

شاعر الثورة الجزائريّة، ومؤلف النشيد الوطني الجزائريّ «قسما .«اسمه الشيخ زكرياء بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان بن الحاج عيسى، ولقبه الشّيخ أو آل الشّيخ، و" له أسماء أخرى يكنى بها كالفتى الوطني، أبي فراس الحمداني، ابن تومرت غير أنّ اسمه الحقيقي هو الشيخ زكريا ابن سلمان ولد يوم الجمعة 12 جمادى الأولى 1326 هـ، الموافق لـ12 يونيو 1908 م، ببني يزقن، أحد القصور السبع لوادي مزاب، بغرداية [1]"، في جنوب الجزائر .لقبه زميل البعثة الميزابية والدراسة الفرقد سليمان بوجناح بـ: "مفدي"، فأصبح لقبه الأدبي مفدي زكريا الذي اشتهر به، كما كان يوَقّع أشعاره "ابن تومرت". عاصر الشّعراء التونسيين المعروفين وارتبط بهم مثل الشاعر محمد العربي الكبادي، وأبو القاسم الشابي بدأ حياته التعليمية في الكتاب، بمسقط رأسه فحصل على شيء من علوم الدين واللغة، ثم رحل إلى تونس وأكمل دراسته بالمدرسة الخلدونية ثم الزيتونية، وعاد بعد ذلك إلى الوطن. كانت له مشاركة فعالة في الحركة الأدبية والسياسية، ولما قامت الثورة انضم إليها فكان شاعر الثورة الذي يردد أناشيدها وعضوًا في جبهة التحرير، مما جعل فرنسا تزج به في السجن مرات متتالية ثم فر منه سنة1959 ، فأرسلته الجبهة خارج الحدود فجال في العالم العربي وعرف بالثورة. وافته المنية بتونس سنة 1977 ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه فكان هو شاعر الثورة.

- ✓ آثاره:

إنّ مفدي زكريا غزير الإنتاج، أبدع الّعر الفصيح والشّعبي.، " لم يكتب الشّعر فقط، بل تنوعت اهتماماته الفكرية والأدبية، فكتب في فن المقال بمختلف أنواعه السّياسي والاجتماعي والنقدي، وكتب في الرواية والقصّة والتمثيليّة وترك العديد من المحاضرات"[2]

- ✓ تحت ظلال الزيتون (ديوان شعر) صدرت طبعته الأولى عام 1965م.
- ✓ اللهب المقدس (ديوان شعر) صدر في الجزائر عام 1983م صدرت طبعته الأولى في عام 1973م.

[1] بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكريا شاعر مجد الثورة، حوارات و ذكريات، ط 3 2003، ص 13.
[2] ينظر، محمد صالح ناصر، مفدي زكريا شاعر النّضال والثّورة، المؤسسة الوطنيّة للفنون الطبيعيّة، غرداية، الجزائر، ط1989،2، ص 40 .

- ✓ من وحي الأطلس ديوان شعر.
- ✓ إلياذة الجزائر ديوان شعر وقد كانت الغاية من هذا العمل هو كتابة التاريخ الجزائريّ، وإزالة ما علق به من شوائب وتزييفات، وقد اشترك في وضع المقاطع التاريخية كل من مفدي زكريا الذي كان متواجد بالمغرب ومولود قاسم نايت بلقاسم الذي كان بالجزائر إضافة إلى عثمان الكعاك المتواجد حينها في تونس. وتتكون الإلياذة من ألف بيت وبيت تغنت بأمجاد الجزائر، حضارتها ومقاوماتها لمختلف المستعمرين المتتاليين عليها وكانت أول مرة يلقي الإلياذة أو البعض منها لأنها حينها لم تكن قد بلغت الألف بيت بل كانت تبلغ ستمائة وعشرة أبيات ألقاها في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي في قاعة المؤتمرات من قصر الأمم أمام جمع غفير من بينهم الرئيس هواري بومدين، مناسبة أخرى اقترنت بإلقاء هذه الأبيات واختيار التاريخ موضوعا لها، وهي الاحتفال بالعيد العاشر لاسترجاع الحرية والذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر والمدية وملیانة على يد بلكين بن زيري.
- ✓ له عدد من دواوين الشّعر لا زالت مخطوطة تنتظر من يقوم بإحيائها.

4. دراسة تطبيقيّة لنماذج رمزيّة من شعر مفدي زكريا:

لقد وظف مفدي زكريا الكثير من النماذج الرّمزيّة في شعره، حاملا بذلك شحنة حضارية مليئة بحس الانتماء، ومحاولا بذلك جعل نفسه معلما حضاريا وثقافيّا يذكره التّاريخ، فنجده يخلد الحضارة الجزائريّة في قوله:

فخلد قدس اللّهيب بياني ** وأذكى لهيب الجزائر فكري.[1]

يتبين هنا إيمان الشّاعر بقدرته الإبداعية من جهة، واعتباره " اللّهب المقدّس" إنتاجا فكرياً ورمزا من رموز الحضارة الجزائريّة.

ويتجلى الرّمز الدّيني في كثير من وقفات مفدي الشّعريّة في مثل قوله:

[1] إلياذة الجزائر، مفدي زكريا، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1987، ص 20 .

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

تأذن ربك ليلة قدر ** وألقى الستار على ألف شهر
وقال له الشعب أمرك ربي ** وقال له الرّب أمرك أمـري
ولعلع صوت الرصاص يدوي ** فعاف اليراع خرافة حبـــر
وتأبى المدافع صوغ الكلام ** إذا لم يكن من شواظ وجمر
وتأبى القنابل طبع الحروف ** إذا لم تكن من سبائك حمر
وتأبى الصفائح نشر الصحائف ** ما لم تكن بالقرارات تسـري
ويأبى الحديد استماع الحديث ** إذا لم يكن من روائع شعري
نوفمبر غيّرت فجر الحياة ** وكنت نوفمبر مطلع فجـــر
وذكرتنا في الجزائر بدرا ** فقمنا نضاهي صحابة بـدر
شغلنا الورى وملأنا الدنى ** بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر[1]

وهذا الاقتباس القرآني المأخوذ من سورة القدر، حيث أسقط الشّاعر ليلة القدر على ليلة الفاتح من نوفمبر 1954، ويتمفصل على خطابين حيث نادى الشعب الرّب، ولبى الرّب نداء الشعب الثائر. وهكذا تتجاوز إلياذة الجزائر الإلياذات السابقة لها، ذلك لأنها تدخل في بناء مشروع وطني أوسع حيث تكون ممارسة التاريخ شكلا من أشكال الوعي وتصير الإلياذة بمفهومها الأسطوري تعبيراً عن الممارسات الخرافية التي تجد جذورها في المناخ.

كما أنّ المطلع على إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، سيجدها تطالعنا بأبيات فيها الكثير من الرّمزية الدّينيّة، حين يقول مثلاً:

جزائر يا مطلع المعجزات ** ويا حجّة اللّه في الكائنات[2]

إذ تكمن معجزة الجزائر في كسر شوكة المستدمر الفرنسيّ، وهي تمثل بذلك معجزة في تاريخ الشّعب النّضالي.

وفي تأمل قد لا يطول لشعر مفدي زكرياء نجد رموزا تراثية، أكثرها من القرآن الكريم، وكثيرها من التاريخ العربي أو من التراث الشّعري، وغالبا ما نراها تتألف من أسماء وقصص الأبطال والأرباب، من حيث مولدهم وموتهم وحبهم وبغضهم وأحقادهم،

[1] المرجع نفسه، ص 53 .
[2] المرجع نفسه، ص 3 .

ومؤامرتهم وانتصاراتهم وهزائمهم، وأعمال الخلق والتدمير' ويلجأ مفدي زكرياء إلى استعمال الصور البلاغية كالكناية والاستعارة، وبعضها الآخر ورد في صور فنية مركبة كالتشبيه في قوله[1]:

قام يختال كالمسيح وئيدا ** يتهدى نشوان يتلو النشيدا

حيث وظف شخصية المسيح عليه السلام، وأسقطها إسقاطا فنّيا رائعاً، ليرمز بها إلى ما يتمتع به أول شهيد بسجن بربروس، من ثبات على المبدأ واستهانة بالآلام وبالموت في سبيل القضية التي يؤمن بها، ومن تضحية بلغت به أن يقدم نفسه فداء لوطنه.

فالرّمز الأسطوري له صلة بخلق نظام إنساني أو فعل حضاري متميز في هذا الشكل، على أننا نرى بعض أوجه الشبه الموضوعية تقوم بشكل أو بآخر بين معظم الرّموز القديمة، وإن كانت تختلف اختلافا بينا، إن من جهة اختيار المواقف الصدامية مثلا، أو من جهة دوافعها، وذلك نظرا لما يتفق وتاريخ ما يؤلفه مفدي زكرياء حول مزاج الشعب الذي أنتجها، كوسيلة خاصة التي اتبعها أثناء عملية الإبداع.

ولعل الشاعر عندما تناول عالم الرّموز والأساطير في شعره نظرا إلى طبيعتها ومدلولاتها وابتعد عن روايتها الخرافية الوهمية، لأنه كان يبحث عن منزلتها الفكرية والروحية التي يصنعها الخيال الإنساني، فالكثير من العلماء من يؤمن بأن أساطير العالم القديم تمثل عن جدارة منجزات الروح الإنسانية إلى أن تتصل بعملية الخلق الملهم للعقول الشاعرية الخيالية الموهوبة، قادرة على إرسال تأملات كونيّة عميقة، لهذا ربما يكون مفدي زكرياء قد اعتمد في شعره على الأسطورة القديمة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمناسك والشعائر الدينية، حتى كانت كأنها تبدو له مناسك منطوقة، مما دفع بعض الناقدين بأن يرى أن الأساطير القديمة هي الأسس الفعلية التي تطورت عبر الروايات الخرافية "من أجل تفسير طبيعة الكون ومصير الإنسان وأصول العادات والعقائد والأعمال الجارية في أيامهم، وكذلك أسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين .[(7)]"كما استعان مفدي زكرياء ببعض الرّموز التي توحي إلى طابع بدائي أولي،

[1] مفدي زكرياء: ديوان اللهب المقدس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية،الجزائر، الطبعة الأولى، 1973م، ص 9.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

التي يشترك فيها العقل الباطني الجماعي للناس من حيث استعماله لبعض المدلولات التي انتقاها من التراث العربي، ومن الرّموز التي استقاها الشاعر في هذا المجال قوله:[1]

والنّار في مسّ الجنون عزيمة ** يصلي بها المستعمر المتكبر

ففي الإشارة إلى النار التي رمز إلى السلاح بشتى أنواعه في مقاومة الاستعمار وإرغامه على الاعتراف بالحق لذويه، ولكي يؤدي الشاعر هذا المعنى وظف رمزا مشهورا في الطب الشعبي، وهو علاج الأمراض العقلية والجنون عن طريق الكي بالنار، حيث يكوى المجنون بالنار لكي يرجع إلى عقله وصوابه، فالاستعمار في سياسته بالجزائر المتمثلة في التسلط والاضطهاد إنما هو مصاب بالجنون، ولكي يشفى من جنونه لابد من كيّه بالنار، وهذه النار هي نيران الأسلحة والمدافع والقنابل... والثورة الجزائريّة بهذا المفهوم ليست إلى علاجا للمستعمر الذي فقد عقله وأضاع رشده، فأصبح يقوم بتصرفات لا يقبلها عقل ولا منطق.

الطبيعة كذلك حاضرة في شعر زكرياء، إذ هي وليدة مشاعر الثورة عند مفدي زكرياء، فإن وجه تلك الطبيعة حمل من ملامح الثورة الشيء الكثير، فهي ليست عند مفدي زكرياء رومانسية ولا حالمة تغرى بالإخلاد إليها والتمرغ في أحضانها وإنما هي طبيعة حية ثائرة توافق القوى الأسطورية بين أدوات الطبيعة:

والأطلس الجبار بث قراره ** فاندك منه الأطلس المتجبّر [2]

فالرّمز هنا عن تجبّر الأطلس حين أعلن القرار الثّوري، وهو من ألطف أساليب البلاغة وأدقها وأقواها، وهو أبلغ من الحقيقة والتصريح؛ لأن الانتقال فيه يكون من الإشارات إسقاطا على الحقائق بالتفاتات فنيّة تسرق من القارئ تلك الآآآآآآه، وتبلغه المعنى بطريقة رهيبة.

ومن الدلالات التي تشير إلى الوعي الذي كان يتمتع به مفدي زكرياء أثناء عمله على مشروع كتابة ملحمة جزائرية، هي استعماله لكلمة إلياذة أو إحدى قرائنها أو عناصرها

[1] إلياذة الجزائر، المرجع نفسه،ص 85.
[2] ديوان اللهب المقدس، المرجع نفسه،ص 52 .

المكونة لها أكثر من عشرين مرة، في سياقات تنم عن وعيه بالجنس الذي يكتب فيه واطلاعه على التراث الإنساني الذي كتب في هذا السياق يقول:

وقالـوا انحرفت بإليـاذة ** تلوم الشباب ومثلك يعلـــو
هوميروس أرّخ.. لم ينتقد ** و شهنامة الفرس بالوصف تغلو
فقلت:شعر الخرافات يفنى ** و شعر البطولات لا يضمحـــل [1]

هذه الأبيات تعكس وعي الشاعر واطلاعه على هذا الجنس الشعري عند الإغريق والفرس (إلياذة هوميروس وشهامة الفرس) وعزاء مفدي زكرياء أنّ مضمون الإلياذة الإغريقية والفارسية مضمون أسطوري وخرافي، في حيث أنّ مضمون إلياذة الجزائر هو مضمون بطولي تاريخي، وهكذا يؤكد الشاعر صلة الإلياذة بالتاريخ وتداخل هذين الحقلين المعرفيين وهو تداخل يتخذ شرعيته من الواقع نفسه.

وما يمكن استخلاصه من كل هذه الوقفات الشعرية الرمزية أنّ موضوع الشعر عند مفدي هو الجزائر، قد صيغ في قالب ملحمي يحكي قصة الشعب الجزائري، وكفاحه ضد الاحتلال الأجنبي باختلاف أنواعه وأزماته، تعبر عن الجماعة وتصور الأحداث الجماعية، وحتى في تناولها فردا معينا يكون الهدف البعيد الجماعة التي ينتمي إليها .كما تمتاز إلياذة و الجزائر واللّهب المقدس عن غيرهما من الشعر بكونهما يعدان وصفا للحقائق وسجلا للوقائع. مع التحذير من مغيبات وقعت فيها أمم في قمة التقدم ونحن في أولى درجات السلم من جديد .كما يمكن القول أنهما شكل من أشكال التاريخ الجزائري المجيد.

خاتمة:

وها هو شاعر الثّورة الجزائريّة يطالعنا بوقفات شعريّة كلها فعل حضاري هادف، حيث لا يمكن له أن يعبر عن نفسه إلا من خلال الرّمز الّذي يجمع فيه بين الدّين والتّاريخ والأسطورة والطبيعة.وتبقى مهمة الشاعر مفدي زكرياء تكمن في قدرته أن "ينفذ بحدسه وتجربته إلى أعماق قضايا وطنه [2]، وهذه المهمة أو المحاولة هي عسيرة

[1] إلياذة الجزائر، المرجع نفسه، ص 100 .
[2] د. مولود قاسم: محاضرات الملتقى للفكر الإسلامي، الجزائر، ص 27.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

تقتضي القدرة الفائقة على نقل معاناته بقدر ما تقتضي القدرة على التعبير عن تلك المعاناة، فالقضية لا تنحصر في المعاناة والتجربة، بل إنها تمتد إلى موضوع التعبيري لهذه المعاناة، وهذا التعبير قادر على توصيل المعاناة برؤيا بارعة إلى المتلقي، والشاعر في حد ذاته يعتمد على مهمة التوصيل تلي مهمة أصالة التجربة في الأهمية.

ومحصلة القول، إنّ الرّمز كان ولا يزال يعمل داخل الوجدان العربي القديم و الحديث، و لنا في التجربة الفنية الشّعريّة عند مفدي زكرياء أصدق مثال، إذ وظف الرّمز في الإلياذة و اللّهب المقدّس بشتى أنواعه، و ببلاغة يستشعرها القارئ الغيور على تاريخه وأدبه، متجاوزا بذلك دلالة الواقع. ومن هنا كان أغلب ديوان شعره يتخذ أشكالا الصور الرّمزية الأسطورية نكاد نلمح فيها البذور الأولى لمواقف الوجودية الشديدة الصلة بالحضارات الشرق القديم المعاصرة لها أو السابقة لها، كما يتّضح جليّا تصويره للمكنونات المتصلة بالشعائر والعادات و المعتقدات الفكرية للجزائر.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. مفدي زكري، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط1، 1987.
2. ـــــــــــ، ديوان اللهب المقدس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية،الجزائر، الطبعة الأولى، 1973م.
3. ابن منظور، لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، لبنان.
4. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985.
5. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العالم للملايين، بيروت، ط2، 1973 .
6. ابراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، 1986.
7. ابراهيم الرماني، الغموض في الشّعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية،1991.
8. يحي السيخ صالح، شعر الثورة عن مفدي زكرياء، دراسة فنية تحليلية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دت.
9. علي عشتري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشّعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
10. فتوح أحمد، الرّمز والرّمز ية في الشّعر العرب المعاصر، دار المعارف، مصر، 1977.
11. بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكريا شاعر مجد الثورة، حوارات و ذكريات، ط 3 2003.
12. محمد صالح ناصر، مفدي زكريا شاعر التضال والثورة، المؤسسة الوطنيّة للفنون الطبيعيّة، غرداية، الجزائر، ط2، 1989.